ما هو منظور من الاحياء كذلك يطرد ما يخفى من الجراثيم ومثله القطران فان الجراثيم تهرب منه كما تهرب الخنافس والبراغيث ونحوها ولذلك لا يصاب بالطاعون من كان مشتغلاً بالقطران ملتصقاً به كما شوهد عياناً على ما يقولون

ولقد كان في جملة ما حدثوا عنه في هذا السبيل ان الحمى الصفراء الشديدة الفتك حينما علقت في سنة ١٨٨٧ بمقاطعات لويزيانا وتكساس وفلوريدا من اميركا الشمالية تناولت فيها اكثر الناس على اختلاف حرفهم وحالاتهم ولكنها تخطت المشتغلين بحرفة الطباعة وقد كان مثلها الهواء الاصفر فانه حين انتشر في شيلي مرة وقتل من اهلها الوفاً لم يتناول واحداً قط من رجال الطباعة بشهادة جمعية الطباعة نفسها. ولعل هذا صحيح لانا لا نذكر ان احداً من المشتغلين بهذه الحرفة عندنا قدمات بالطاعون او الهواء الاصفر حين انتشارهما بيننا وقد يكون ذلك بسبب الذرّات المتطايرة من الرصاص او بسبب الحبر وما فيه من زيت وسخام

ولقد حدثوا عن تأثير طرق عديدة على نحو ما تقدم وكلها مما يقضي بالعجب ويدل على ان اقبح الحرف في الظاهر وادعاها الى السقم والموت قد تكون في بعض الحالات من اشد الموانع المرضية واكثرها حرصاً على سلامة متعاطيها

هذا ولا يبعد ان تكون الخمر والحشيش والافيون وامثالها من المنبهات المخدرات مانعة لكثير من الامراض المعديه لانه يوجد من متعاطيها الوف قد طالت اعمارهم وحسنت صحتهم وهم يتعاطون في الظاهر اشد دواعي السقم والموت

كتاب اولادي — (تابع ما قبله)

اما شرف النفس فانه شديد الارتباط والعلاقة بحرية الضمير والاخلاص اذ هو كتكميل لهما بما يزيده عليهما في علائق الرجلين بعضهما بعض من شعائر الطمأنينة والارتياح التي تمليها مبادئ الشرف وتوحي بها روح الاستقامة

وعلى الجملة فان من تبع جادة الاستقامة وسلك طريق الصلاح فقد حوى في شخصه جميع الكمالات التي تقدم لنا ذكرها وكان عادلاً حازماً نزيهاً وافر القسط من الهدى والرشاد بعيداً عن مظان الزيغ والضلال فما مثل الاستقامة فضيلة تتضمن افضل ما يجعل الانسان من اهل الصلاح والخير والشبان الذين احرزوا او اخذوا باحراز مجموع هذه المناقب والمحامد يكونون قد وفوا قسطاً كبيراً من تثقيفهم الادبي وعلقوا باهداب الكمال بحيث لا يكون باقياً لهم لبلوغ قمته الا اليسير من الشروط الثانوية التي هي قريبة المنال سهلة الادراك بدون كبير عناء . ولكن لا يجوز مع ذلك اغفالها نظراً لما لها من الاهمية في حد ذاتها واني اجتزئ عن التبسط في الكلام عنها بسردها سرداً بسيطاً وهي

الاعتدال في الاقوال والافعال الذي يؤخذ دليلاً على قوة الارادة وسلامة الفكر

الكتمان وحفظ اللسان وهما شرطان اذا لم يراعيا حق المراعاة اصبحت العلاقات بين الرجلين حتى الصديقين مفصومة العرى واهية الرباط

التواضع وهو الذي قال عنه لابرديير انه ضروري للفضل ضرورة الظلال للصور المرسومة فهي تزيدها ظهوراً وبهاء

البشاشة والبشر اللذان هما من الدلائل الظاهرة على كرم النفس وطيب جوهرها

الترتيب في الافكار والاعمال والشؤون المادية وهو الذي بدونه يضيع قسم كبير من العمل ويذهب سدًى على غير طائل

استخدام العقل الذي يعين الارادة على الظهور بمظهرها الفعال

واخيراً القناعة وهي الاعتدال والبساطة في الغذاء والى هذه الخلال لا بد من اضافة الكراهة والاحتقار لكل ما كان سمجاً ساقطاً دنيئاً كالخلاعة والادمان على المسكر والدعارة وسائر ما يدني الانسان من الحيوان الاعجم واني احذر الشبيبة من الاستسلام الى هذه الملذات المعيبة ولا سيما وان عاداتنا اذا لم تدفع اليها فانها لا تدفع عنها فضلاً عما تظهره الاداب السائرة من التساهل والاغضاء عن بعض عيوب ليس اشد آفاتها ما اصاب الجسوم ولكن ما اعتلت منه صحة النفوس والاخلاق ثم ما يخشى على تأصله في الشاب الناشئ من الذوق الفاسد والعادة السيئة

وهي عيوب يكون التوقي منها ايسر بكثير من الاقلاع عنها بعد ما تكون علقت بالانسان وعلق بها الان من انصرف ردحاً من الزمن الى تعاطي الاغذية المصنوعة بالتوابل ويجد الاغذية الصحية الصالحة عند العودة اليها تافهة لا طعم لها . وعندي ان هجر مثل هذه التجارب الخطرة والاقلاع عنها بتاتاً مع التزام جادة واحدة قويمة خير من الدخول فيها والوقوع في حبائلها

ولا يعزب عن الخاطر ان النفع كل النفع في العمل بهذه الاقوال لان فيها ما يصون كرامة الانسان فضلا عن صيانة العقل والجسم معاً وبهذه

الكرامة ينال اكرام الناس عامة واحترام الجمهور . وتقوم الكرامة في احترام الانسان لنفسه وفي اجتناب ما يحطه في عيني ذاته وفي اعين الغير وما كان شأن الشهوات السمجة الساقطة الا ان تجرّ الى هذا الانحطاط . ومهما يكن مبلغ الاحترام الواجب علينا نحو انفسنا فان احترامنا للغير اوجب وألزم ولقد يتعين علينا بنوع اخص ان نؤدي الاكرام ونظهر الرعاية للشيوخ وللنساء وللذين يمتازون بفضلهم وفضيلتهم والوظيفة التي يقومون بها ولا شيء ادل على التربية الحسنة والتهذيب التام من اكرام الناس واحترامهم . ولقد جرت عادة القول ان الشبيبة قليلة الاكرام وهو قول اذا صح كان دليلاً على ضعف ادبي وعلى ضياع الكرامة الشخصية وداعياً لمقاومتهما بكل الوسائل الفعالة والطرق الممكنة

وما قيل عن فقد الاحترام يصح ان يقال عن تلاشي روح النظام وهو شر حاصل وبيل العاقبة على البلاد لانه اذا اختل النظام تزعزعت اركان الهيئة الاجتماعية وتهدمت المدنية نفسها كما يبيد الجيش انفرط عقد نظامه. ألا ان قوة الجموع تنال بفضل النظام

ولا غضاضة على استقلال المرء وأنفته اذا اطاع وهو عائش او عامل مع غيره الشرائع والنظامات التي تصبح الشعوب بدونها شراذم ضعيفة الشأن والجيوش عصابات مسوقة الى الانكسار والخذلان

ان الشاب الذي وطد نفسه على امتلاك قيادها وعلى الخضوع لهذا النظام العقلي وهما الشرطان اللذان لا بد منهما لرجل الواجب ورجل الشجاعة يهون عليه احترام احكام النظام العسكري والنظام الاجتماعي ويعلم ان من

تعلم الطاعة كان جديراً بان يتولى ازمة النهي والامر . وما كان الجندي الردي ليحسن قط مهام الرئاسة والقيادة

واني اخاطب هذا الشاب وانا على ثقة من استماعه قولي له . كن محباً للنظام ملازماً للاحترام محتفظاً بكرامة الحياة

ورغبة في تلخيص ما تضمنته السطور السالفة من شتى النصائح واقوال الارشاد وجعلها جملاً مختزلة واعية اقول . احب الحقيقة وكن في كل شيء صادقاً بلا تكلف ولا رياء وكن حر الضمير مخلصاً مستقيماً نزيهاً وكن معتدلا كتوماً للسرو ديع الخلق ثم كن مجتهداً نشيطاً راغباً في النظام والترتيب قنوعاً لطيفاً

وهذه كلها واجبات مختلفة الانواع والاهمية ولكنها واجبات على كل حال وتستلزم الطاعة والخضوع

الباب الثاني

العدالة والاخاء

اذا اردنا ان نعدّد واجبات الانسان نحو ذويه لكانت العدالة في الصف الاول وكذا لو حاولنا ان ننشيء جريدة بما يجب على الانسان في الهيأة الاجتماعية للزم ان نجعل العدالة في رأسها واولها . وكما ان على الانسان واجباً يطالبه به الغير وهو العدالة كذلك له حق يتقاضاه من ذويه ومن الهيأة الاجتماعية وهو العدالة ايضاً . اذ انه من الثابت المقرر ان الواجبات

والحقوق متلازمة التبادل فمن قام بما عليه من الواحدة حقّ له ان يثق بحصوله على ما له من الثانية

وما قيل عن العدالة يصح ان يقال عن الاخاء الذي هو واجب على الانسان نحو اخيه ولو لم يقابله حق معين واضح طريق المقاضاة به

فعلى من احب القيام بالواجب ان يكون ذا عدالة واخاء . تلك هي الشريعة التي تشرف على هدى الانسان وهي قاسية شديدة المراس ورفيقة لطيفة معاً

وعندي ان عاطفة العدالة قد وجدت فينا سابقة لكل تربية وتهذيب وهي احدى القواعد الادبية التي من دونها لا تقوم قائمة شريعة من الشرائع الانسانية عن حق ولا يكون لشيء وجود فهي كاحدى الحقائق الثابتة التي شيدت عليها دعائم الهندسة فلو عنّ لنا ببال ان نضعها موضع الشك والريب لتهدد بالهدم علم الطبيعيات وما يلحقه من اكثر العلوم والمعارف التي هي من مفاخر الانسان

فلنضع اذن كلمة العدالة فوق كل جدال ونزاع وهي تريد ان نعطي لكل ذي حق حقه وعلى ذلك تعتبر العروة الوثقى والاولى للجمعيات الانسانية التي ما تشكلت الا واتخذت شعاراً لسلطتها العليا الدفاع اولاً عن كيانها ثم اجراء العدل بين الناس . وما عاش الناس في سلام وساد الوئام بينهم الا بعد ما انبثت بينهم روح الانصاف وانتصب قسطاس العدل

ألا ترى ان الرجل الذي لم تفسد قلبه الانانية والاغراض دائم التلبية لداعي العدل كلما ناداه فهو يحكم في كل امر بحسب ما يوحي اليه شعوره هذا

فاما انطلق لسانه بالمدح او الذم اذا كان الفاعل غيره واما تولاه انشراح داخلي لا تبكيت من ضميره ان كان الفاعل هو نفسه

ولقد قال برودون ان الانسان خلق للعدل قبل كل شيء مستشهداً على ذلك بتاريخ الامم حيث قال ما من تعليم انّى كان مبلغ اهميته الا وكان مجالاً للشك وسبباً لاضرام نار معركة هائلة . اما فوز العدالة على الاثرة والانانية في آخر كل معركة فقد كان من ابدع مظاهر البسيكولوجيا (علم النفس) وهو مع دلالته على ما للضمير من التأثير الفعال القوي فهو برهان ايضاً على ضمانته الكبرى

واعلم ان انصاف الانسان لذويه هو واجب حتمي مطلق ولقد تضمنت الوصية التي وردت في الانجيل الكريم قائلة لا تفعل بالناس ما لا تريد ان يفعله بك الناس الامر بالعدل والانصاف مع شيء من الزيادة عليها لان هذه الوصية وان تكن على صيغة النهي فان التحتيم بعدم الفعل بالناس ما لا نرضى ان يكون مفعولاً بنا يتجاوز الى ما هو غير عادل فعله وذلك لان كثيراً من الامور التي تصح عدلاً لا تصح اذا عملنا بموجب مبدإ هذا التبادل في المعاملة بين الناس . وفضلاً عن ذلك فان تعليم الانجيل يكتمل بهذه الوصية الاخرى الامرية التي تقول افعل بالناس ما تريد ان يفعلوه بك وهو يشتمل ايضاً على هذه الوصية وهي احبب قريبك كنفسك

تبين مما تقدم ان واجبات الانسان نحو ذويه تقوم بالانصاف والاخاء وكف الاذى وبذل المعاونة والمحبة

يقضي علينا واجب العدالة ان نحترم الناس في حياتهم وحريتهم واموالهم وشرفهم ومعتقداتهم ومواطنهم . ومن حيث ان هذا الواجب متساوٍ على

غيرنا وعلينا فيكون لنا ان نتقاضى حق مراعاة الغير لهذا الاحترام بالنسبة لانفسنا . والمجتمع الانساني مدين لنا في احقاقه هذا الحق بموجب شرائعه ولكن الشريعة لا يمكنها ان تتناول وتقضي الا على ما كان محسوساً مادياً واما الاداب فحكمها اشد فهي تشجب ما لم يسبب ضرراً ظاهراً وحتى ما جال طيّ الفكر والضمير . ولقد تقضي على عمل ولو لم يكن مستلزماً للوم والمذمة وغير وخيم العاقبة اذا كانت النية منه سيئة . وهذا ما لا تستطيع الشرائع ادراكه وتقصيه دون ان تتعدى دائرة حدودها وتشط عن الخطة المرسومة لها

وتقوم الاستقامة بمراعاة الواجبات التي تأمر بها الشرائع والاداب معاً مراعاة دقيقة . فالرجل المستقيم هو صاحب الشرف بعينه وهو الذي ينبغي ان يكون قدوة المنطلق في ميدان الحياة وقد تزود بوصيتنا له «كن عادلاً مستقيماً» ثم نردفها بهذه الوصية الثانية التي تلطف برفقها من شدة الاولى وهي قولنا له «كن كريم القلب محباً رؤوفاً»

ومن الثابت ان التربية والارادة تجعلان الرجل عادلاً ولكن هل يمكنهما ان تجعلاه كريم القلب فقد يزعم الكثيرون بامتناع ذلك وان الانسان يولد صالحاً او شريراً بحيث لا سبيل لنقض ما بنته الطبيعة

فهل ذلك صحيح ؟ قبل الاجابة على هذا الزعم يجب ان نعلم هل هو غفير عدد الرجال الذين هم في الحقيقة اشرار

كان يقول جان جاك روسو ان الرجال اشرار ولكن الرجل صالح وهو ما يفيد ان الرجال اذا كانوا اشراراً جموعاً واجمالاً فما خلا كل منهم على انفراد من صلاح وخير . ولا نشك ان الفيلسوف مصيب في قوله فما اقفر قلب